

ظاهرة التقديم والتأخير في سورة القلم (دراسة في علم المعاني)

غدير سالم الشمايلة

ملخص

عالج هذا البحث سورة القلم في القرآن الكريم معالجة بلاغية في ضوء علم المعاني، حيث اختار ظاهرة (التقديم والتأخير) في السورة، ليبين جماليات هذه الظاهرة، وما يكمن وراءها من بلاغة ومرام أخلاقية ودينية، مستنيراً بكتب البلاغة والتفسير، وبذلك يضع يد القارئ على علة تقديم الألفاظ وتأخيرها في كثير من آيات السورة الكريمة؛ ليستشعر روعة النظم القرآني، ودقته المتناهية في مراعاة هذه الظاهرة، وكان منهجه استقرائياً وصفيّاً.

The phenomenon of moving a word forward or placing it backwards in Sorat Al-Qalam (A study in semantics)

Abstract

This research addressed Sorat Al-Qalam in the Holy Quran rhetorically in the light of semantics, where I chose the phenomenon of moving a word forward or placing it backwards in Sorat Al-Qalam in order to illustrate the aesthetics of this phenomenon as well as the rhetorical, ethical and religious themes that lie beyond that, taking advantage of the rhetoric and interpretation books; as such the readers recognize the phenomenon of moving a word forward or placing it backwards in many verses included in this Sourah, and therefore, they may sense the beauty of the Quranic structure and its absolute accuracy in dealing with this phenomenon, according to the inductive descriptive approach used in the research.

مقدمة

يعالج هذا البحث ظاهرة التقديم والتأخير في إحدى سور القرآن الكريم، وهي سورة (القلم) معالجةً (بلاغية) وذلك على صعيدين:

١. الصعيد النظري، حيث عرض بصورة موجزة لجهود البلاغيين القدامى وبعض المحدثين في دراسة هذه الظاهرة وموقفهم منها، وبعض ما قدموه من شواهد، وكان هذا العرض تمهيداً للتطبيق النظري اللاحق عليه.
 ٢. الصعيد التطبيقي، حيث عمد إلى سورة من سور القرآن الكريم (سورة القلم) وقام بدراسة آياتها بلاغياً بعد أن استضاء بما سبق من دراسة نظرية حول ظاهرة التقديم والتأخير، وأفاد منها في مجال علم المعاني لفهم دلالات الآيات، وإضاءة جماليات السورة وروائعها.
- وتكمن أهمية هذا البحث في مساعدة القارئ على تبين دلالات هذه الظاهرة (التقديم والتأخير) عند قراءته لأية سورة من سور القرآن الكريم؛ لأنه يضع يده على لطائفها وجمالياتها، فيحاول بدوره استقصاء أبعادها ودلالاتها. وكان منهج الباحث أثناء الدراسة منهجاً استقرائياً وصفيّاً، يعتمد إلى تتبع الظاهرة، وأقوال الدارسين فيها، ثم تبيينها في مواضعها في الآيات الكريمة.

والله الموفق

تمهيد

بعد التقديم والتأخير من الموضوعات البلاغية اللطيفة في علم المعاني، وأدعاها إلى تنشيط المدارك، وتحريك الحواس عند قراءة النص القرآني، وتأمل تراكيبه اللغوية، فيتساءل القارئ: لم قدمت هذه اللفظة على تلك في الآية الكريمة؟ ولم تأخرت في موضع آخر في آية أخرى؟ فيسعه التفكير تارة، ويعجزه تارة أخرى.

من ذلك أن قارئاً قد يتساءل عن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَيِّمِهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ أُمَّرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾^(١)، فهذه الآيات تتحدث عن فرار الإنسان من أعز الناس إليه رهبة من يوم الحساب، ويتساءل عن تقديم ذكر الأخ على الأبوين، ثم تأخير ذكر الصاحبة (وهي الزوجة في الدنيا) والأبناء في الآية الكريمة، عند الحديث عن يوم الحساب، وفرار الإنسان ممن حوله رهبةً وخوفاً؟!

فيأتي الجواب لطيفاً من بعض الدارسين الذين استوقفهم هذه الظاهرة بأن الآيات "قد رتبت هؤلاء الذين يفرّ منهم الإنسان، ترتيباً وفق تصاعد شدة الموقف وكرهه، فالمكروب يفرّ من الأخ قبل الأبوين، فإذا زاد الكرب فرّ من الأبوين متمسكاً بالصاحبة والبنين، فإذا اشتد الكرب تخلّى عن الصاحبة، وبقي متعلقاً بالولد، حتى إذا بلغ به

(١) سورة عبس: آية ٣٤ - ٣٧.

الكرب ذروته، نسي فلذات كبده، ولم يعد منشغلاً إلا بذاته ومصيره، فالتقديم هنا أفاد التدرج بالرتبة من الأبعد إلى الأقرب^(١).

فمثل هذه الدراسة تنبه القارئ إلى ضرورة التأمل فيما يمرّ به من مواطن التقديم والتأخير أثناء قراءته لكتاب الله.

إنّ التقديم والتأخير من حيث هو مخالفة عناصر التركيب ترتيبها الأصلي في السياق، وتقديم ما كان الأصل فيه أن يتأخر، وتأخير ما كان الأصل فيه أن يتقدم. تمت معالجته كظاهرة بلاغية في أقدم الدراسات التراثية، ولكن دون تفصيل لأغراضه البلاغية، مما حدا بعالم كبير مثل عبد القاهر الجرجاني، أن يشكو من عدم التفات الناس للغايات اللطيفة الكامنة وراءه، واكتفائهم بالقول: إنّ الألفاظ تتقدم وتتأخر للعناية والاهتمام، يقول: "وقد وقع في ظنون الناس أنه يكفي أن يقال إنه قدّم [أي اللفظ] للعناية، ولأنّ ذكره أهم، من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية، وبمّ كان أهم؟ ولتخيّلهم ذلك قد صُغر أمر التقديم والتأخير في نفوسهم، وهونوا الخطب فيه، حتى إنك لترى أكثرهم يرى تتبعه، والنظر فيه ضرباً من التكلف، ولم نرَ ظناً أزرى على صاحبه من هذا وشبهه"^(٢).

وشرح عبد القاهر في دلائل الإعجاز بوضوح أهمية تدبر هذه الظاهرة، وفهم أبعادها، لما يترتب على ذلك من تنوع في المعاني والغايات، وضرب أمثلة كثيرة على هذه الظاهرة، من ذلك تعليقه لتقدم الضمير (أنت) في قوله تعالى:

﴿أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِاللَّيْتِنَا يَا إِبْرَاهِيمَ﴾^(٣).

يقول: "لا شبهة في أنهم لم يقولوا ذلك له - صلى الله عليه وسلم - وهم يريدون أن يقرّ لهم بأن كسر الأصنام قد كان، ولكن أن يقرّ بأنه منه كان وكيف؟"^(٤).

فعبد القاهر ينبه إلى أن الغاية من السؤال ليست الإقرار بحدوث الفعل، لأنه ظاهر للعيان، ولكنهم أرادوا الإقرار بأنه قد وقع منه دون غيره، وهو يرفض الإجابة التقليدية التي درج عليها الناس من أن الضمير قد تقدم للأهمية، أو العناية به، ويؤكد على ضرورة التأمل في أبعاد هذا التقديم، ولم كان؟ لذا تعدّد دراسته نقلاً لهذه الظاهرة من الجانب النظري إلى الجانب العملي، وقد سلك بذلك مسلكاً وعرأ، ومهدّ الطريق لمن جاء بعده في هذا الباب^(٥).
ومن قبل عبد القاهر الجرجاني أشار الدارسون القدامى إلى هذه الظاهرة بإيجاز دون التعمق في أغراضها، من ذلك ذهاب سيوييه (ت ١٨٠هـ) إلى أنّ التقديم والتأخير إنما هو وسيلة لإبراز العناية والاهتمام، يقول: "فإنّ قدمت المفعول وأخرت الفاعل، جرى اللفظ كما جرى الأول كقولك: (ضرب زيداً خالدٌ) لأنك أردت به مؤخراً

(١) بلاغة العطف في القرآن الكريم. د. عفت الشرقاوي، دار النهضة العربية، بيروت، (د. ت)

(٢) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق، ط ١، ٢٠٠٧م، ص ٨٧.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٦٢.

(٤) دلائل الإعجاز، ص ١١٢.

(٥) انظر أسلوب التقديم والتأخير في القرآن الكريم على رأي عبد القاهر الجرجاني، محمد فواز غنام، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٩٣، ص ٦.

وليس مقدماً، ولم تُرد أن تشغل الفعل بأول منه، وإن كانوا يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعنى^(١)، إلا أن سيبويه لم يعرض لأبعاد هذه الظاهرة إلا بما يخدم الغرض النحوي والترتبة في تركيب الكلام.

كذلك كانت بدايات الدارسين من البلاغيين القدامى حين عرضوا للتقديم والتأخير على أنه من عيوب النظم، فهذا قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ) يرى أن التقديم والتأخير من عيوب ائتلاف اللفظ والوزن، يقول: "هو ألا ينتظم للشاعر نسق الكلام على ما ينبغي لمكان العروض، فيقدم ويؤخر"^(٢)، كما قال دريد بن الصمة: ويلغ نميراً - إن عرضت - ابن عامرٍ فأَيّ أخٍ في النائبات وطالب^(٣)

فهو يرى أن الجملة المعترضة (إن عرضت) نوع من التقديم والتأخير، وأنها أدت إلى نوع من التعقيد اللفظي في تركيب البيت.

كما نعى المرزباني (ت ٣٨٤هـ) على الشعراء تقديمهم وتأخيرهم للألفاظ^(٤)، كقول الشاعر: فصدت فأطولت الصدود وقلما وصالاً على طول الصدود يدوم^(٥)

والأصل أن يقال: وقلما يدوم وصال، فعقب المرزباني بقوله: "وقد وضع قوم الكلام في غير موضعه فقدموا وأخروا"^(٦).

فالدارسون الأوائل استنقلوا أسلوب التقديم والتأخير، لا سيما في نظم الشعر، لكن موقفهم كان يتغير حين يتعلق الأمر بنظم القرآن الكريم.

فهذا ابن رشيق القيرواني يعلن كراهته لهذا الأسلوب بصورة واضحة، وينعته بالمستقل، يقول: "ورأيت من علماء بلدنا من لا يحكم للشاعر بالتقدم، ولا يقضي له بالعلم إلا أن يكون في شعره التقديم والتأخير، وأنا أستنقل ذلك"^(٧).

ويستشهد على هذا الاستنقال بقول الفرزدق:

وما مثله في الناس إلا مملأ أبو أمه حيّ أبوه يقاربه^(٨)

(١) الكتاب، سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٨، ط ٣، ج ١، ص ٣٤.

(٢) نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق: كمال مصطفى، ط ٣، ص ٢٢١ - ٢٢٢.

(٣) ديوان دريد بن الصمة، تحقيق: كمال مصطفى، ط ٣، (د. ت)، ص ٢٢١-٢٢٢.

(٤) الموشح، المرزباني (أبو عبد الله محمد بن عمران) تحقيق: علي محمد الجاوي، مطبعة لجان البيان العربي، (د. ط) ١٩٦٥، ص ١٥٢.

(٥) لم أعرف صاحبه، ولم يذكره صاحب الموشح.

(٦) الموشح، ص ١٥٢.

(٧) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيق القرواني، تحقيق: محمد قرقزان، دار المعرفة، بيروت، ط ١، ١٤٠٨هـ، ص ٤٤٧.

وهو بيت مشهور استشهد به كثير من الدارسين فيما بعد، للتدليل على التعقيد اللفظي في نظم الشعر، ولا يفوت المتأمل ما في البيت من تقديم وتأخير للألفاظ بحيث يصعب تبين صلة القرى بين الممدوح، والمُملَك (الملك) إلا بعد جهد جهيد.

غير أن ابن رشيق لم يعرض لهذه الظاهرة في النظم القرآني، وبذا يكون موقفه إنما هو اتجاه الشعر ونظمه ليس إلا.

ويعد تقدم الدراسات في هذه الظاهرة، لا سيما في القرآن الكريم نجد الزجاجي (ت ٣٢٧هـ) في كتابه (الأمالي) يورد أربعة أغراض بلاغية يؤديها هذا الأسلوب البديع، يقول: "علم أن للأشياء مراتب في التقديم والتأخير، فمنها ما يكون بالتفاضل أو بالاستحقاق أو بالطبع أو على حسب ما يوجبه المعقول، فإذا سبق معنى من المعاني على الخلد والفكر بأحد هذه الأسباب أو بآخرها، سبق اللفظ الدال على ذلك المعنى السابق وكان ترتيب الألفاظ بحسب ذلك" (٢).

ويقصد بالتفاضل التقديم والتأخير نظراً للأفضلية والشرف، كتقدم موسى على هارون في قوله تعالى:

﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ (٣).

ويقصد بالاستحقاق الرتبة النحوية، كتقديم الفعل على الفاعل، والموصوف على الصفة، أما التقديم بالذات، فيعني تقدم الواحد على الاثنين، والثلاثة على الأربعة وهكذا، كقوله تعالى:

﴿مَشَى وَثَلَاثَ وَرَبَاعَ ﴿٤﴾﴾.

ولا يتضح معنى قوله التقديم (على حسب ما يوجبه المعقول) إلا أن يقصد الصورة المنطقية لتقديم الألفاظ على بعضها البعض وفق ما يرد على خاطر أولاً.

وكانه يومئ إلى نظرية السياق، فإن كان الموقف دالاً على فرح أو تعظيم أو حزن أو تهديد برز اللفظ الدال على ذلك كقولنا: وافرحتاه، يا الله، تعساً للطغاة... الخ.

وعلى كل، فقد تنبه الرجل إلى أن التقديم والتأخير لا يحكمه دوماً غرض العناية والاهتمام؛ لأن هذا تعبير فضفاض ينبغي توضيح أبعاده وأغراضه.

وفي القرن السابع نجد ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) يعرض في المثل السائر لمزيد من الأغراض البلاغية لهذه الظاهرة، كالنقديم بالسبب، وتقديم الأكثر على الأقل، والتقديم للدلالة على قدرة الخالق (٥).

وفي تعليقه لقوله تعالى:

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿١﴾﴾.

(١) هذا البيت نسبه ابن جني إلى الفرزدق في كتابه الخصائص، ج ١، ص ١٤٧، ج ٢، ص ٣٩٥ لكنه غير موجود في الديوان.

(٢) الأمالي، أبو القاسم الزجاجي، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجبل، بيروت، ط ٢، ١٩٨٧.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٢١.

(٤) سورة النساء، الآية: ٣.

(٥) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، تحقيق: محمد محيي الدين، مطبعة مصطفى البابي، مصر، (د. ت)، ١٩٣٩، ج ٢، ص ٣٨.

يرى أنّ ذكر السماء قد تقدّم على ذكر الأرض للفضل والشرف في مواضع كثيرة، ولكنه في هذا الموضوع قد تأخّر، لأنّه لما ذكر - سبحانه - شهادته على شؤون أهل الأرض وأحوالهم، ووصل ذلك بقوله: (وما يعزب) لاعم بينهما ليلي المعنى المعنى^(٢).

فهو يشير إلى أنّ التقديم جاء ليناسب السياق، مع أنّ الأصل أنّ يحكمه التفضيل والشرف، لأنّ الحديث السابق على ذكر الأرض والسماء، جاء حول وصف أهل الأرض وأحوالهم، وذلك في قوله تعالى:

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُقِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثَالِ نَسْمَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾^(٣).

فتلاوة القرآن والقيام بالأعمال المختلفة المشهود عليها، والتي يفيض فيها الإنسان ويستغرقه ذلك كل وقته، إنّما هو شأن أهل الأرض، فاقتضى ذلك تقديم الأرض وذكرها.

ويزداد عدد هذه الأغراض البلاغية حتى تصل إلى خمسة وعشرين غرضاً على يد الزركشي (ت ٧٩٤هـ) في كتابه (البرهان في علوم القرآن) وبذلك استوت الظاهرة على يديه باباً كاملاً، وضرب أمثلة على كل غرض، كالتقديم للتحذير والتقديم للتبهي، والتقديم لمراعاة الأفراد، والتقديم للتعجب، والتقديم للترتيب وغيرها^(٤).

ومن جميل ما أورده على ذلك تعليقه لتقديم ذكر الجباه على الجنوب في قوله تعالى:

﴿ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ ﴾^(٥).

فهو يرى أنّ ذكر الجباه قد تقدم؛ لأنّ مانع الصدقة في الدنيا، كان يصرف وجهه عن الفقير أولاً، ثم ينوء بجانبه ثم يتولّى بظهره^(٦).

وفي تعليقه لتقديم الجبال على الطير في قوله تعالى:

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ﴾^(٧).

يرى أنّ تقديم الجبال على الطير، إنّما جاء من باب التقديم للتعجب، لأنّ تسييح الجبال أعجب من تسييح الطير^(٨).

وفي القرن العاشر جاء السيوطي (ت ٩١١هـ) وتوجّه جهود السابقين في كتابه (الإتقان في علوم القرآن) حيث درس هذه الظاهرة وأضاف إليها عشرة أنواع أخرى هي:

(١) سورة يونس، الآية: ٦١.

(٢) المثل السائر، ج ٢، ص ٤٩.

(٣) سورة يونس، الآية: ٦١.

(٤) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ط ٢، (د. ت)، ج ٣، ص ٢٣٨.

(٥) سورة التوبة، الآية: ٣٥.

(٦) البرهان، ج ٣، ص ٢٣٨.

(٧) سورة الأنبياء، الآية: ٧٩.

(٨) البرهان، ج ٣، ص ٢٣٨.

التقديم للتبرك، والتشريف، والمناسبة، والحث، والسبق المكاني والزمني، والعلّة، والتعظيم، والغلبة، والترقي للأعلى، والتدلي للأدنى^(١).

ويقصد بالعرضين الأخيرين (الترقي والتدلي) التدرج في الرتبة من ذكر الأرقى إلى الأدنى، كتقديم ذكر الله على الملائكة، والملائكة على أولي العلم، في قوله تعالى:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّمَا إِلَهُ الْإِلَهِهُ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾^(٢).

أما التدلي؛ فقصده ذكر الأدنى قبل الأعلى، كذكر الأرض قبل السماء وهكذا.

إشكالية الفاصلة القرآنية

ظهرت إشكالية الفاصلة القرآنية، وعلاقتها بتقديم الألفاظ وتأخيرها، أثناء دراسة البلاغيين القدامى لأغراض هذه الظاهرة، وهو موضوع خطير لأنه يربط بين الإيقاع الصوتي في أواخر الآيات والمعاني السابقة عليه، حيث ذهب بعض الدارسين إلى أنّ الآية قد تتقدم فيها الألفاظ أو تتأخر مراعاةً للسجع والفاصلة، وهذا كلام خطير لا بدّ من عرض لبعض أطرافه في هذا المكان، وقبل ذلك نورد تعريف ابن منظور في (لسان العرب) للفاصلة القرآنية، حيث يقول:

"وأواخر الآيات في كتاب الله فواصل بمنزلة قوافي الشعر، وواحدتها فاصلة"^(٣).

ومن قبله عرض الباقلاني (ت ٤٠٣ هـ) لموضوع الفاصلة القرآنية، وأكد على أنها "تابعة للمعاني كما ورد في القرآن، ولا تكون المعاني تابعة لها، فيكون ذلك وضعاً لها في غير موضعها"^(٤).

هذا ولم يورد الجرجاني شيئاً حول علاقة الفاصلة القرآنية بالتقديم والتأخير، غير أنّه ذكر علاقة المشابهة بين الفاصلة القرآنية والقافية الشعرية فقال:

"وإنما الفواصل في الآي، كالقوافي في الشعر"^(٥).

وقد انقسم الدارسون إزاء علاقة الفاصلة القرآنية بالمعاني السابقة عليها فريقين: فمنهم من ذهب إلى أنّ الفاصلة القرآنية تأتي عفوية في أواخر الآيات ولا تجوز على المعاني قبلها، بينما ذهب فريق آخر إلى أنّ الآية القرآنية قد تتقدم ألفاظها، وتتأخر خدمةً لهذه الفاصلة.

فهذا ابن الأثير يعلّل ترتيب الألفاظ في قوله تعالى:

﴿خُدُّوا فَعُلُوا﴾^(٦) ﴿٣٠﴾ ﴿ثُمَّ الْجَحِيمِ صَلُّوا﴾^(٦) ﴿٣١﴾ ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوا﴾^(٦) ﴿٣٢﴾.

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٨م، ج ١، ص ١٣١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨.

(٣) لسان العرب، ابن منظور المصري، دار صادر، بيروت (د.ت) مادة (فصل).

(٤) إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ١٩٦٣م، ص ٢٧١.

(٥) دلائل الإعجاز، ص ٣٨١.

(٦) سورة الحاقة، الآيات: ٣٠-٣٢.

فيقول: "فإنه لم يقدم السلسلة على السلك للاختصاص، وإنما قُدمت لمكان نظم الكلام، ولا شك أن هذا النظم أحسن من أن لو قيل: ثم اسلكوه في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً"^(١). وهذا تعليل عجيب من ابن الأثير لترتيب الألفاظ، فهو يرى أن ترتيبها إنما يراعى فيه نظم الكلام، أي القافية والسجع (الفاصلة القرآنية) وحاشا القرآن أن يكون كذلك، لأن الله لا تعجزه الفاصلة، ولا تضطره إلى تقديم وتأخير!!

ونورد على هذه المواقف الغريبة ذهاب بعض الدارسين إلى أن قوله تعالى:

﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴿٥﴾ ﴾^(٢).

حيث تشير الآيتان الكريمتان إلى قدرة الله على إخراج المرعي الخضراء في دورة الحياة، ثم تحويلها إلى غثاء (ما يحمله السيل من القش والزيد والقدر) والأحوى هو النبات الذي قد اسود^(٣).

فذهبوا في إعراب (أحوى) مذهبين:

الأول: أنه صفة لـ (غثاء) وحينئذ لا تقديم في الكلام ولا تأخير.

والثاني: أنه حال من (المرعي) وعندئذ يكون تقديم الكلام: أخرج المرعي أحوى فجعله غثاء.

وقد أيد الإعراب الثاني كل من الفراء^(٤) والنحاس^(٥)، بينما ذهب أبو حيان الأندلسي إلى الإعراب الأول

فقال: "والظاهر أن أحوى صفة لـ (غثاء) ويتابع "وحسن تأخير (أحوى) لأجل الفواصل"^(٦).

وإلى مثل ذلك ذهب ابن هشام فقال:

"وإنما الواجب أن تكون حالاً من (المرعي) وأخر لتناسب الفواصل"^(٧).

وكذلك ذهب الزركشي فرأى أن تأخير (أحوى) إنما وقع رعاية للفواصل^(٨).

وأرى أن الآيات الكريمة تجمع في فواصلها بين غرضي الإيقاع والبلاغة، لا تعارض بينهما، وليس هذا

مما يعجز الله سبحانه، وهو القائل:

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِثْلًا مِنَ الْكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾^(٩).

(١) المثل السائر، ج ٢، ص ٤٠.

(٢) سورة الأعلى، الآيات: ٤-٥.

(٣) لسان العرب، مادة (حوا).

(٤) معاني القرآن، أبو زكريا الفراء، تحقيق: عبد الفتاح إسماعيل شلبي، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٧٢، ج ٣، ص ٣٥٦.

(٥) إعراب القرآن، أبو جعفر النحاس، تحقيق: صبر غازي زاهر، مكتبة النهضة، بيروت، ٣، ١٩٨٢، ج ٥، ص ٢٠٤.

(٦) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠١م، ج ٨، ص ٤٥٣.

(٧) مغني اللبيب، ابن هشام الأنصاري، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، (د. ط)، ج ٢، ص ٥٣٠.

(٨) البرهان في علوم القرآن، ج ٣، ص ٢٣٨.

(٩) سورة الكهف، الآية: ١٠٩.

بل العجب في العصر الحديث لدائرة المعارف البريطانية التي أوردت وصفاً للقرآن الكريم. أوردته الدكتور فضل حسن عباس (رحمه الله) واصفةً القرآن الكريم بأنه محض إنشاء، واستدلوا على ذلك بموضوع الفواصل القرآنية فقالوا:

"وكان القرآن يعطي للقارئ انطباعاً بأنه مجرد إنشاء جاء بطريقة عشوائية، ويؤكد صحة ذلك طريقة ختم هذه الآيات بآيات مثل: "إِنَّ اللَّهَ، عَلِيمٌ" "إِنَّ اللَّهَ حَكِيمٌ" "إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ" وإن هذه الأخيرة لا علاقة لها مع ما قبلها، وأنها وضعت فقط لتنميط السجع والقافية"^(١)!!

ويشبه هذا ما ذهب إليه الدكتور إبراهيم أنيس من أن التقديم والتأخير في القرآن يخضع لنظام الفواصل، فيقول: "ولا نجد عنقاً أو مشقة حين نذكر أنّ نظام الفواصل القرآنية والحرص على موسيقاها هو الذي تطلب تأخير الفاعل في الآية الأولى"^(٢) [يقصد قوله تعالى]:

﴿ فَأَوْجِسْ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾^(٣) فهو يعتقد أنّ الأصل يقال: فأوجس موسى في نفسه خيفة، وأن الفاصلة استوجبت مثل هذا الترتيب.

فلا بدّ إذاً من موقف جاد من قبل الدارسين المحدثين لمناهضة هذا الموقف، وتصحيح سوء الفهم هذا، سواء كان عن قصد، أم غير قصد، وقد أمرنا جميعاً بذلك في قوله تعالى:

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾^(٤).

فترتيب الألفاظ داخل الآيات الكريمة يخضع لبلاغة المعنى، وغايات التشريع، وأغراض بيانية عظيمة، كالتقديم للاختصاص في مثل قوله تعالى:

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾^(٥).

فتقديم ضمير المخاطب (إياك) إنّما جاء لغاية الاختصاص، أي اختصاص الله بالعبادة دون غيره، وليس لإفساح المجال لقافية النون في آخر الآية لغايات السجع والإيقاع.

كما أنّ التقديم في قوله تعالى:

﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَهْشُرْ ﴾^(٦)، ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَى ﴾^(٧)، فلغاية التنبيه على أهمية هاتين الفئتين (اليتامى

والسائلين) فتقدم ذكرهما على الفعلين تقهر/ تتهر/ لتحذير الناس من إهمالهما، كما أنّ يتقدم ذكر اليتيم على السائل له غاية بلاغية، وهي أولويته على السائل في الرعاية، لأنّ اليتيم أحوج من السائل إليها لفقد والديه، بينما قد يكون للسائل أهل وسند، فاليتيم من أصعب الحالات التي يمر بها الإنسان، على أننا نجد باحثين محدثين يذهبون إلى أنّ

(١) قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، فضل حسن عباس، دار البشير، عمان، ط١، ١٩٨٨م، ص ٨٤.

(٢) انظر كتاب (من أسرار اللغة) د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٦، ١٩٧٨، ص ٢٤٥.

(٣) سورة طه، آية ٦٧.

(٤) سورة محمد، الآية: ٢٤.

(٥) سورة الفاتحة، الآية: ٥.

(٦) سورة الضحى، الآية: ٩.

(٧) سورة الضحى، الآية: ١٠.

الإيقاع غرض مقصود لذاته في هذه الآيات، فهذا عبد الفتاح لاشين يقول في تحليله للآيات السابقة: "قدّم اليتيم والسائل للاحتفاظ بنظام الفاصلة في الآيات القرآنية، ولزيادة التناسق اللفظي، وهو أحد عوامل التأثير في النفس، وإذا أحرّ المعمول نلاحظ خروجاً واضطراباً في النظم"^(١)

ويرى قسم آخر منهم أنّ الفاصلة القرآنية تجمع بين غاية الإيقاع وغاية الغرض البلاغيّ وسموه، دون تعارض بينهما.

من ذلك قول مصطفى صادق الرافعي وهو يعالج لفظ (ضيزى) في سورة النجم: "وفي القرآن لفظة غريبة هي من أغرب ما فيه، وما حسنت في كلام قَطِّ إلا في موقعها منه، وهي كلمة (ضيزى) من قوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمٌ ضِيزَى﴾"^(٢)، إذ وردت في ذكر الأصنام وزعمهم [أي الكفار] في قسمة الأولاد، فإنهم جعلوا الملائكة والأصنام بناتٍ لله مع أولادهم البنات".

ويتابع "فكانت غرابية اللفظ أشد الأشياء ملاءمة لغرابية هذه القسمة... وكان هذا التصوير أبلغ ما في البلاغة، وخاصة في اللفظة الغريبة التي تمكّنت في موضعها من الفصل"^(٣).

فالرافعي يرى أنّ هذه الفاصلة الغريبة (ضيزى) ملائمة تماماً لمعنى الإنكار والتهكّم على من ادعى أنّ الملائكة بنات لله.

ويستشهد الدكتور صلاح الخالدي على دقة التقديم والتأخير في القرآن الكريم والتوازن الذي يحكم هذه الظاهرة بقوله: "وإذا قدّم القرآن لفظاً في موضع قدّمه لحكمة، وإذا أحرّ اللفظ نفسه في موضع آخر أخره لحكمة أيضاً، والتوازن الدقيق هو الذي يحكم هذا التقديم والتأخير، ويحقق الإعجاز البياني الرفيع، ويقرر المعنى القرآني المراد"^(٤).

ففي قوله تعالى:

﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾^(٥) يقول الباحث:

"أما تقديم شبه الجملة في "لا فيها غول" فلا يدل على مجرد الإخبار عنها وإنما يدل على الاختصاص، فخرم الجنة اختصت بأنها لا تغتال عقول المؤمنين، ولا تذهب باتزانهم، وفهمهم وفكرهم"^(٦).

والى ما هو قريب من ذلك ذهبت الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) في تحليلها لقوله تعالى:

﴿إِنْ عَلَيْنَا لِهْدَى، وَإِنْ لَنَا لِالْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾^(٧)

(١) معاني التراكيب، د. عبد الفتاح لاشين، دار الطباعة المحمدية، الأزهر (د.ت) ج ١، ص ١٨١.

(٢) سورة النجم، الآية: ٢٢، ضيزى: أي غير عادلة.

(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، مؤسسة المختار، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٣م، ص ١٨٠.

(٤) إعجاز القرآن البياني، د. صلاح الخالدي، دار عمار، عمان، ط ١، ٢٠٠٠م، ص ٢٦٢.

(٥) سورة الصافات، آية ٤٧.

(٦) إعجاز القرآن البياني، ٢٦٥.

(٧) سورة الليل: آية ١٢-١٣.

تقول: "وليس القصد إلى رعاية الفاصلة هو وحده الذي اقتضى تقديم (الآخرة) هنا على (الأولى) وإنما اقتضاه المعنى أولاً، في سياق البشرى والوعيد، إذا الآخرة خير وأبقى، وعذابها أكبر وأشد وأخزى"^(١).

وهي ترفض مبدأ الخصومة بين أصحاب نظرية اللفظ والمعنى في تحليل ورود الفواصل القرآنية، فتقول: "فضل جلال الفواصل القرآنية في نسقها الفريد يعفينا من لدّد خصومة بين أصحاب اللفظ وأصحاب المعنى، لا يعرفها ذوق العربية المرهف في البيان الأعلى بالكتاب العربي المبين"^(٢).

ويصور الدكتور أحمد بدوي موقع الفاصلة القرآنية داخل النظم القرآني بأنها مستقرة في قرارها، مطمئنة في موضعها ولها وظيفة وتقل فيقول:

"وتأتي الفاصلة في القرآن مستقرة في قرارها، مطمئنة في موضعها، غير نائرة ولا قلقة، يتعلق معناها بمعنى الآية كلّها تعلقاً تاماً، بحيث لو طرحت لاختلّ المعنى، واضطرب الفهم فهي تؤدّي في مكانها جزءاً من معنى الآية، ينقص ويختل بنقصانها"^(٣).

(١) الإعجاز البياني للقرآن، عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، مصر، ص ٢٧٨.

(٢) المرجع السابق ص ٢٧٩.

(٣) من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي، نهضة مصر للطباعة، ٢٠٠٥م، ص ٦٥.

سورة القلم

بسم الله الرحمن الرحيم

ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِعِزَّةٍ مَرِيكَ بَمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنْ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ
 عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَبُصِّرْ وَنُورِئِ بِأَيْكُمُ الْمَمْنُونِ ﴿٥﴾ إِنَّ مَرِيكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ
 بِالْمُهِنِينَ ﴿٦﴾ فَلَا تَطْعِ الْمُكَذِبِينَ ﴿٧﴾ وَذُوا لَوْنُذِهِنِ فَيُذْهِنُونَ ﴿٨﴾ وَلَا تَطْعِ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ﴿٩﴾ هَمَّازٍ مَشَاءٍ
 بِنَمِيرٍ ﴿١٠﴾ مَنَاعٍ لِلْخَيْسِ مَعْنَدِ أُثِيمٍ ﴿١١﴾ عُنْدَ بَعْدِ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٢﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٣﴾ إِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ
 أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٤﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ ﴿١٥﴾ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرُنَّهَا
 مُصْحِحِينَ ﴿١٦﴾ وَلَا يَسْتَشُونَ ﴿١٧﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٨﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيرِ ﴿١٩﴾ فَنَادَوْا
 مُصْحِحِينَ ﴿٢٠﴾ أَنْ اغْدُوا عَلَيَّ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢١﴾ فَانظَرُوا وَهَمَزُوا فَنَادُوا بِمُصْحِحِينَ ﴿٢٢﴾ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ
 عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٣﴾ وَغَدَا عَلَيَّ حَرْثٌ قَادِرِينَ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿٢٥﴾ بَدَلْنَا فَنَحْنُ
 مَحْرُومُونَ ﴿٢٦﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلْقُوا لَكُمْ لَوْ لَا تَسْبَحُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَل بَعْضُهُمْ
 عَلَى بَعْضٍ يَتْلَوْنَ مَوَازِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَائِفِينَ ﴿٣٠﴾ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣١﴾
 كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿٣٣﴾ أَنْتَجِعُ الْمُسْلِمِينَ
 كَالْمَجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا
 تَخِيرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِاللَّغَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنْ لَكُمْ لَمَّا تَحْكُمُونَ ﴿٣٨﴾ سَلِّمُوا لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
 أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٩﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا
 يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٠﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُقُهُمْ ذُلَّةٌ وَقَد كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤١﴾ فَذَرْنِي وَمَنْ
 يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَمْ لِي لَهُمْ إِنْ كِيدِي مِنْهُمْ ﴿٤٣﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ
 مَغْرَمٍ مُثْتَلُونَ ﴿٤٤﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٤٥﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ
 مَكْظُومٌ ﴿٤٦﴾ لَوْلَا أَنْ نَدَامَرْنَا نِعْمَتَنَا مِنْ رَبِّهِ لَئِنَّا بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٧﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٨﴾
 وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٤٩﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
 لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٠﴾ .

سورة القلم (دراسة تطبيقية)

وفيما يأتي دراسة لسورة القلم لتتبع ظاهرة التقديم والتأخير بلاغياً، وقد وقع الاختيار عليها لعدة أسباب،

منها:

١. ارتباط هذه السورة بذكر القلم والتسطير ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾^(١)، وإشارتها الواضحة إلى قداسة القلم والكتابة، إلى درجة أقسم معها الإله (عز وجل) بهذه الأدوات.

فالسورة تنويه بقيمة الكتابة وتعظيم لشأنها، وهذا موقف يلفت نظر كل غيور على هذه الأمة، مُدافع عن استعدادها الفطري للتعلم والكتابة والتوثيق.

٢. ورود إشارات لهذه السورة لدى المهتمين بظاهرة التقديم والتأخير من البلاغيين القدامى، ومنهم الزركشي في كتابه (البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن) وصاحب كتاب (بديع الفوائد) لابن قيم الجوزية عند تعليقه لبعض مواضع التقديم والتأخير في السورة مما سنشير إليه في مكانه، بحيث يمكننا أن نتابع على إشاراتهم مزيداً من مواضع التقديم والتأخير.

٣. ذهاب بعض الدارسين المحدثين إلى محاولة تفسير مطلع السورة (ن) بصورة غير تقليدية، حيث شككوا في أسلوبيّة القسم التي ذهب إليها المفسرون ورأوا أنّ (ن) هي كلمة مصرية قديمة في اللغة

(الهيروغليفية) وليست قسماً وتعني: (هبطوا وانحطوا وغفلوا وتبلدوا) إشارة إلى المشركين الذين اتهموا النبي بالجنون^(٢)، فخطبهم سبحانه: ﴿مَا أَنتَ بِعَمَتٍ مَّرِيكٍ بِمَجْنُونٍ﴾^(٢) ﴿فَسَبِّحْ وَبِحُسْنِ الْوَجْدِ﴾^(٣)

بأيكُمُ الْمُنُونُ﴾^(٣)، فافتضى الأمر أن نعرض لأرائهم؛ لأنها تمسّ السورة التي نحن بصدها.

فالسورة فيها من الملاحظ البلاغية واللغوية ما يدعونا إلى تنوير القارئ بها، علّها تكون دافعاً لمزيد من البحث والتقصّي في كتاب الله، الذي لا ينقضي إعجازه، ولا تنتهي فوائده.

التقديم والتأخير في مطلع السورة

احتار الدارسون ومن قبلهم المفسرون في لفظ (ن) في مطلع السورة فذهبوا في تفسيرها وإعرابها مذاهب شتى.

من ذلك ما ذهب إليه القرطبي من أنّ ابن عباس ونصر وابن أبي إسحق قد ذهبوا إلى كسرهما على إضمار حرف القسم (أي أنّ الله أقسم بها)، وحرف القسم محذوف^(٤).

وكأنتا نقول: (نون والقلم وما يسطرون).

وذهب القشيري ونصر عبد الرحمن إلى أنّ (ن) حرف، لذا لم يُعرب:

"قلو كان كلمة تامة أعرب كما أعرب القلم"^(١).

(١) سورة القلم، الآية: ١.

(٢) الهيروغليفية تفسّر القرآن الكريم، سعد عبد المطلب العدل، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٢م، ص ٥١.

(٣) سورة القلم، الآيات: ٢-٦.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله القرطبي، تحقيق سالم مصطفى البديري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١،

٢٠٠٠م، ج ١٨، ص ١٤٦.

والى مثل ذلك ذهب جعفر الصادق فقال: "هو المعروف من حروف المعجم، لأنه لو كان غير ذلك لكان معرباً"^(٢).

وقد أبدى الزمخشري في تفسيره (الكشاف) حيرته من هذا اللفظ فذكر أنه يقرأ بالسكون والفتح والكسر (ن/ن) ^(٣).

لكنه استغرب قول بعض المفسرين إن (ن) تعني الدواة (المحبرة أو وعاء الحبر) فقال:

"وأما قولهم هو الدواة، فما أدري أهو وضع لغوي أم شرعي"^(٤).

ثم حاول مجاراتهم فيما ذهبوا إليه فقال:

ولا يخلو إذا كان اسماً للدواة من أن يكون جنساً أو علماً، فإن كان جنساً فأين الإعراب والتتوين، وإن كان علماً فأين الإعراب؟"^(٥).

وكأنه بذلك يميل إلى أن (ن) حرف من حروف الهجاء لذلك اقتضى تسكينها وعدم إعرابها.

واستكار الزمخشري لمعنى الدواة يؤيده إحساس القارئ بأن التقديم والتأخير بين لفظي الدواة والقلم غير منسجم من حيث المعنى لسببين.

الأول: أن القلم قد خلق قبل جميع الكائنات لقول المفسرين نقلاً عن النبي:

"أول ما خلق الله القلم، ثم خلق النون"^(٦)، فلو كانت النون هي الدواة، لقدّم القلم عليها مراعاةً للسبق.

ثانياً: لم يؤثر عن العرب في شعرهم أو نثرهم أن عظموا (الدواة) أو أقسموا بها، ومعلوم أن القرآن نزل على لغة العرب، وكرس كثيراً من مفاهيمهم وقيمهم الإيجابية، من ذلك أنه رسم صورة للجمل عند تصويره للشعر، فقال واصفاً حجم الشرارة في نار جهنم:

﴿ إِنهَا تَرْمِي بِشَرٍّ كَالْقَصْرِ ﴾ ﴿ ٣٢ ﴾ ﴿ كَأَنَّهُ جُمَالٌ صُفً ﴾ ﴿ ٣٣ ﴾ ﴿ ^(٧).

فالجمالة هي جمع (جَمَل) تكريساً للقيم الصحراوية واعتزازهم (أي العرب) بالجمال) كما تعزز البيئات

الحضرية بالقصور (بشرير كالقصر) فجمعت بين قيمتين (دالتين على بيئتين مختلفتين).

ومال البعض الآخر من المفسرين إلى أن (ن) آخر حرف من حروف (الرحمن) وأنها وردت في القرآن

مقطعة في أكثر من سورة الر/ حم/ ن ^(٨).

ونقل عن ابن كيسان قوله: "هو فاتحة السورة وقيل اسم السورة"^(٩).

(١) المصدر السابق، ج ١٨، ص ١٤٧.

(٢) المصدر السابق، ج ١٨، ص ١٤٧.

(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم الزمخشري، تحقيق: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب

العلمية، بيروت، ط ٢، ٢٠٠٣م، ج ٤، ص ٥٧٢.

(٤) المصدر السابق، ج ٤، ص ٥٧٢.

(٥) المصدر السابق، ج ٤، ص ٥٧٢.

(٦) انظر ص ١٧.

(٧) سورة المرسلات، الآيات: ٣٢-٣٣.

(٨) الجامع لأحكام القرآن، ج ١٨، ص ١٤٧.

فهذا عرض للمذاهب المختلفة في تفسير هذا الحرف، لعل أكثرها اعتدالاً أنّ الحرف قسم من الله بأحد حروف المعجم؛ لأنّ حروف العربية لها من القداسة ما لا يعلم سرها إلا الله.

وقد ذهب أحد الدارسين المحدثين مذهباً غير اعتيادي، سنعرض له فيما بعد حيث حاول أن يقارن اللفظ بلفظ مشابه في لغات أخرى^(١) لأنّ القرآن احتوى ألفاظاً عديدة، أثبت المفسرون أنّها تشير إلى لغات أخرى غير العربية، تقديراً من القرآن لباقي الحضارات واللغات، كأسماء الأنبياء من غير العرب كإبراهيم ويونس وغيرهم، وألفاظاً فارسية مثل: سراقق واستبرق وسندس وغيرها^(٢).

ويعلل الباحث ذهابه إلى رفض التفسير القائل بأنّ (ن) حرف من حروف الهجاء مسبوق بأداة قسم محذوفة، معللاً ذلك بأنّ هذه الكلمة (ن) هي مكوّنة من ثلاثة أحرف وليس من حرف واحد (نون) وأنها كلمة غير عربية موجودة في اللغة المصرية القديمة، وتعني (هبطوا وانحطوا وغفلوا وتبدلوا) بل وما تزال نفس الكلمة في اللغة القبطية - التي هي امتداد للغة المصرية القديمة - تكتب بحروف يونانية، وتعني بالانكليزية (Abyss) وبالعربية: جهل وانحط وفسد، فهي تشير إلى من كذبوا وانحطوا باتهامهم النبي صلى الله عليه وسلم بالكذب^(٤)، في قوله تعالى:

﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ ٢ ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ ٣ ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ٤ ﴿ فَسَبِّحْهُ وَيُبِصْرُ ﴾ ٥ ﴿ بِأَيِّكُمْ الْمُنُونُ ﴾ ٦ ﴿ ٥ ﴾ .

ويستدل الباحث على ذلك باستخدام واو الجماعة في قوله (يسطرون) فهو يستبعد أن يكون الذين يسطرون في قوله تعالى: ﴿ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ ، هم الملائكة كما ذهب المفسرون، لأنّ الآية اللاحقة تشير إلى غير الملائكة في قوله تعالى:

﴿ فَسَبِّحْهُ وَيُبِصْرُ ﴾ ٥ ﴿ بِأَيِّكُمْ الْمُنُونُ ﴾ ٦ ﴿ ٦ ﴾ .

فالآية فيها تحدٍ لغير الملائكة، وهم الفريق الذي اتهم النبي صلى الله عليه وسلم بالجنون في قوله تعالى:

﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ ٧ .

فالآيات تشير إلى فريقين من الناس، فريق المكذبين بالنبي صلى الله عليه وسلم وفريق المؤمنين، فلا يعقل بعد هذا أن يقال بأنّ واو الجماعة دالة على الملائكة، وفي ذلك يقول الباحث: "ولا نستطيع بناءً على ذلك

(١) المصدر السابق، ج ١٨، ص ١٤٧.

(٢) الهيروغليفية تفسر القرآن الكريم، ص ٥١.

(٣) انظر دراسات في فقه اللغة وسر العربية، د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين، ط ١١، ١٩٨٦، ص ١٧٨.

(٤) الهيروغليفية تفسر القرآن الكريم، ص ٥١.

(٥) سورة القلم، الآيات: ٢-٦.

(٦) سورة القلم، الآية: ٥.

(٧) سورة القلم، الآية: ٢.

اعتبار بداية السورة قسماً؛ لأنَّ الله إذا أقسم لا يقسم بشيء باطل، وبجهالة يسطّرونها أو بالاتهامات لنبيه بالجنون^(١).

ولكنه توجيه ذكي ولطيف من الباحث ليس فيه إساءة لكتاب الله، بل يفتح الباب واسعاً أمام مزيد من الأبحاث والدراسات حول مطالع السور، وتفسير الحروف المقطّعة، التي حيرت العلماء منذ القدم، ولم يبتّوا فيها بمعنى قاطع^(٢)، ولا يعني هذا أننا نبتّ في هذا المعنى من خلال دراسة هذا الباحث.

التقديم والتأخير في ذكر صفات النبي

ونبدأ بدراسة التقديم والتأخير في ذكر صفات الرسول الواردة في بداية السورة لأنها تشكل ملمحاً أسلوبياً

في الآيات الأوائل:

﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾^(٣).

﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾^(٤).

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾^(٥).

ويمكن الاستعانة بالسياق الدال على هذه الصفات لفهم هذا الترتيب الدال على صفاته عليه السلام، فالسورة كما يذهب سيد قطب - رحمه الله - هي احتضان للنبي والفتنة المؤمنة معه بعد أن استهزأ بهم الكفار، واتهموا النبي صلى الله عليه وسلم بالجنون، فجاءت لتنتفي ما يقوله المتقولون عنه، ويطمئن قلوب المستضعفين بأنّه هو يتولّى عنهم حرب أعدائهم، ويعفيهم من التفكير في أمر هؤلاء^(٦).

ويبدو من الإشارة إلى القلم والتسطير في قوله: ﴿ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾^(٧)، أنّ الآيات فيها إشارة إلى

أهل الكتاب من اليهود والنصارى لأنّهم كانوا أهل كتابة وخط لوجود التوراة والإنجيل في حوزتهم، فكل ما خطوه حول النبي في صحفهم أو ما أولوه حول شخصيته مردود عليهم، ومعلوم أنّ كتبهم قد بشرت بمجيئه عليه السلام، لكنهم اتهموه رغم إدراكهم لحقيقة ما جاء به بالجنون والفتنة، فردّ الله عليهم: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَائِمًا مُّخْلِئًا وَرَاكِعًا وَمِنْ بُيُوتِكُمْ أَمْ تُخَفِّوْنَ أَعْيُنَكُمْ عَنِ رَّبِّكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُرْءَوْنَ ﴾^(٨)، أي المجنون المنحرف عن العقيدة.

وعودةً إلى التقديم والتأخير في ذكر صفات النبي فإنّها بدأت بنفي الجنون عن نبي الله مراعاةً للتدرج

في رفع معنوياته، لأنّ أكثر ما ألمه هو اتهامه بالجنون، وهي تهمة تضعف وتفت في عضد الإنسان العادي الناقص في عقله ودينه إذا وجهت إليه، فكيف بنبي الله المعصوم؟!

(١) الهيروغليفية تفسر القرآن الكريم، ص ٥١.

(٢) المرجع السابق، ص ١٥.

(٣) سورة القلم، الآية: ٢.

(٤) سورة القلم، الآية: ٣.

(٥) سورة القلم، الآية: ٤.

(٦) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، (د.ت)، ج ٢٩، ص ٣٦٥٣.

(٧) سورة القلم، الآية: ١.

(٨) سورة القلم، الآية: ٥.

ثم تدرجت في ذكر المكافأة المُعدّة له إذا صبر على هذه التهمة:

﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾^(١) لأن المتهم يثبت على البلاء إذا بُشّر بالأجر.

ثم تدرجت في ذكر أخلاقه العظيمة:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾^(٢) وهذه الشهادة أثلجت صدر النبي، لأن مصدرها هو ملك الملوك، وإنما لتعلو

لتعلو على كل مكافأة، وتزيل كل هم وحزن!!

فالتدرج غرض بلاغي عظيم، أورده القرآن في مواضع عديدة، وقد أشار إليه السيوطي تحت مسمى

(التلقي من الأدنى إلى الأعلى)^(٣) بينما سماه الزركشي التقديم للترتيب^(٤).

وعند تأمل الخطاب الحاني الذي قصد إلى التسرية عن النبي بعد ما أصابه من ألم جراء اتهامه

بالجنون، نجد أنّ التقديم والتأخير حضوراً آخر عند استخدام الضمائر وتوجيهها. فضمير المخاطب الخاص بالنبي

مقدّم على ضمير الغائب الخاص بالمشركين، وفي هذا مكرمة وتقديم للنبي ورفع من شأنه:

﴿ فَسَبِّحْ وَيُضِرُّونَ ﴾^(٥) ، ﴿ وَذُو لُؤْلُؤٍ مِنْ فَيْدِهِنُونَ ﴾^(٦).

ويستشعر القارئ الوقفة الإلهية العظيمة إلى جانب النبي وكأننا بإزاء فريقين متخاصمين، يودّان إبصار

الحقيقة، ومعرفة المخطئ، فيطمئن الله نبيه بادئاً بتوجيه الخطاب إليه؛ رفعاً من شأنه بأنه سيدرك الحقيقة قبل أن

يدركوها، وهي أنهم هم المجانين المفتونون في دينهم، بل ويلفته إلى حقيقة لطيفة، قد تكون غابت عنه وهي أنهم

على ضلالهم، ومحاولاتهم إلحاق الأذى به، يودّون لو أنّ النبي (يُدهن لهم) أي يلاينهم في الكلام، وذكر القرطبي

معنى (تدهن) فقال: "الإدهان: التليين، وقيل: ودوا لو تصانعهم في دينك، فيصانعونك في دينهم، وقيل: ودوا لو

تداهن في دينك فيداهنون في أديانهم، فقد طلبوا منه أن يعبد آلهتهم مدة، ويعبدوا إلهه مدة"^(٧).

كل ذلك عبر خطاب رحيم، يفيض بتقدير النبي وبشي بمنزلته عند الله، بل وعند أعدائه، عبر هذا

الاستخدام الدقيق للضمائر، حيث روعي فيه التقديم للأفضلية.

وينبّه ابن قيم الجوزية إلى ظاهرة التقديم والتأخير في ذكر صفات المكذبين في الآيات اللاحقة، وذلك في

قوله تعالى:

﴿ وَمَا نُنْعِمْ عَلَى كُلِّ كَفَّارٍ مَهِينٍ ﴾^(٨).

﴿ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ مَبِيبٍ ﴾^(٩).

(١) سورة القلم، الآية: ٣.

(٢) سورة القلم، الآية: ٤.

(٣) معتزك الأقران، ج ١، ص ١٢١.

(٤) البرهان في علوم القرآن، ج ٣، ص ٢٣٨.

(٥) سورة القلم، الآية: ٥.

(٦) سورة القلم، الآية: ٩.

(٧) الجامع لأحكام القرآن، ج ١٨، ص ١٥١.

(٨) سورة القلم، الآية: ١٠.

(٩) سورة القلم، الآية: ١١.

﴿ مَنَعَ لِلْخَيْرِ مُعَدِّ أَثْمِهِ ﴾^(١).

ويعلّل تقدم (الهَمَاز) على (المشَاء) وتقدّم (المَنَاع) على (المعتدي) فيقول:
"وأما تقدّم هَمَاز على (مشاء بنميم) فلائِنَّ المشي مرتب على القعود في المكان، والهَمَاز هو العِيَاب، وذلك لا يفتقر إلى حركة، وانتقال من موضعه بخلاف النَمَام، وأما تقدم (مَنَاع للخير) على (معتد) فبالرتبة أيضاً؛ لأنَّ المَناع يمنع نفسه، والمعتدي يعتدي على غيره، ونفسه قبل غيره"^(٢).

فبدأ برتبة الهَمَاز الذي يعيب الناس، وهنا لا يحتاج إلى مشي، ثم انتقل إلى مرتبة أبعد في الإيذاء، وهو المشي في النَميمة، وبعدها انتقل إلى مرتبة أبعد في الإيذاء، وهو أن يمنع الخير عن الآخرين، ثم انتقل إلى مرتبة أكثر بعداً من قبلها، وهو الاعتداء، فإنَّ منع الخير، قد لا يصحبه اعتداء، أما العدوان فهو أشدّ المراتب المتقدمة إيذاءً^(٣).

وعن تقدم المال على البنين في الآية اللاحقة:

﴿ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴾^(٤)، في الإشارة إلى من يكذب النبي.

يقول الدكتور فاضل السامرائي: "فهو يمتنع (أي الحَلَّاف المهين) بماله وبنيه. والمال والبنون هما سبب الخضوع والانقياد، ولو كان صاحبهما مكرراً، فالعربي صاحب عزة في عشيرته ببنيه، ولكن المال والقوة هما سبب الخضوع والانقياد في الأفراد والشعوب، مهما كانت حقيقة صاحب المال من أخلاق سوء وإثم واعتداء؛ فإنَّ لهما القوة، وهذا مشاهد في واقعنا، وهو سبب استعلاء الدول القوية، صاحبة هذا المال، وتلك القوة على الشعوب المستضعفة"^(٥).

وقد تقدّم ذكر المال على البنين في مواضع أخرى في القرآن الكريم كقوله تعالى:

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾^(٦).

﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ﴾^(٧) ٥٥ ﴿ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾^(٨).

﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾^(٩) ٨٨ ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾^(١٠) ٨٩ ﴿

﴿ فَتَالِ لْصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْبَرُ مِنْكَ مَا لِيَ وَأَعَزُّ نَفْرًا ﴾^(١١).

﴿ ... إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقْلُ مِنْكَ مَا لِيَ وَوَلَدًا ﴾^(١٢) ٣٩ ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنَّ خَيْرًا مِنْ حَتِّكَ ... ﴾^(١٣).

(١) سورة القلم، الآية: ١٢.

(٢) بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، تحقيق: علي بن محمد العمران، دار علم الفوائد، ط٢، ج١، ص ١٠٩.

(٣) التعبير القرآني، فاضل السامرائي، دار عمار، ط٨، ص ٥٦.

(٤) سورة القلم، الآية: ١٤.

(٥) التعبير القرآني، ص ٥٦.

(٦) سورة الكهف، الآية: ٤٦.

(٧) سورة المؤمنون، الآية: ٥٥.

(٨) سورة الشعراء، الآية: ٨٨.

(٩) سورة الكهف، الآية: ٣٤.

﴿ أَفَأَبْتُ الَّذِي كَفَرَ بآيَاتِنَا وَقَالَ لَأَتَيْنَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾^(١).

﴿ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَأَتَّبَعُوا مِنْ لَدُنِّي مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا ﴾^(٢).

فالمال قوة ومنعة للإنسان، فقدم على البنين لقدرته على تحريك الاقتصاد والأفراد، وطلب المنافع ما لا يستطيع أن يفعله البنون، وكم من بيوت مليئة بالأولاد والذرية لكنها تشكو الفقر وقلة الحيلة، وكم من دول تعج بالسكان، لكن اقتصادها لا يسعها لإعالة هؤلاء، فجاءت الإشارات القرآنية لتبين قوة المال وخطورته في بناء الأسر والدول، على أن الآيات لم تغفل أهمية الأفراد (البنون) فهم زينة الحياة، وهم منعة للأهل عند الكبر (إن لم يعفوا) لكن المال يعز صاحبه حين يخذله أبناؤه، ويستتر حاله حين يتنكر له من حوله، وهذا مشاهد ومجرب.

والسورة بعد ذلك فيها كثير من مواطن التقديم والتأخير، قد تكون ظاهرة للقارئ، وقد تحتاج إلى تأمل

طويل لتعيينها، من ذلك:

تقدم الإحساس بالضلال على الإحساس بالحرمان في قول أصحاب الجنة الذين عصوا الله، ولم يخرجوا

حق المساكين من ثمراتها، ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾^(٣) ﴿ فَاصْبَحْتَ كَالصَّرِيرِ ﴾^(٤).

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴾^(٥) ﴿ ٢٦ ﴾ ﴿ بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ ﴾^(٦) ﴿ ٢٧ ﴾ ﴿ ٢٨ ﴾.

فحين أنكروا حال جنتهم بعد أن وجدوها محروقة في الصباح الباكر، نكالا من الله، لحرمانهم الفقراء، شرعوا في تعليل هذه الحال، فقالوا: قد نكون ضالين، أي ضلنا الطريق إلى الجنة، وقيل بل الضلال الذي أشاروا إليه هو الضلال المعنوي أي ضالون عن الصواب^(٧). ثم استدركوا على الأمر بأسلوب الإضراب (بل نحن محرومون) أي أدركوا بفطرتهم أن هذا حرمان من النعمة بسبب عصيانهم، فجاء الترتيب في الآية مراعى لأحوال الإنسان وخواطره، وما يجول فيها أولاً من أفكار.

وفي الآية الكريمة يرد غرض السبق الزمني، وهو من الأغراض البلاغية التي أشار إليها الدارسون

القدامي، من ذلك تقدم عذاب الدنيا على عذاب الآخرة في قوله تعالى:

﴿ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾^(٨) لأن عذاب الدنيا يسبق عذاب الآخرة.

ويظهر هذا الغرض في قوله تعالى - في السورة نفسها -

﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(٩) ﴿ ٤٤ ﴾ ﴿ وَأَمْلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي

مُنِينٌ ﴾^(١٠) ﴿ ٤٥ ﴾.

(١) سورة الكهف، الآية: ٣٩.

(٢) سورة مريم، الآية: ٧٧.

(٣) سورة نوح، الآية: ٢١.

(٤) سورة القلم، الآيات: ١٩-٢٠.

(٥) سورة القلم، الآيات: ٢٦-٢٧.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، ج ١٨، ص ١٥٩.

(٧) سورة القلم، الآية: ٣٣.

(٨) سورة القلم، الآيات: ٤٤-٤٥.

والاستدراج الوارد في الآية يعني الاستنزال، وفي ذلك يقول الزمخشري:
"استدرجه إلى كذا، إذا استنزله إليه درجة فدرجة، حتى يورطه فيه، واستدراج الله العصاة، أن يرزقهم الصحة والنعمة، فيجعلوا رزق الله ذريعةً ومتسلقاً إلى ازدياد الكفر والمعاصي"^(١).
أما الإملاء في قوله: "وأملئ لهم إن كيدي متين" فهو الإمهال والمد في العمر، يقول الزمخشري تعقيباً على ذلك:

"كم من مُستدرج بالإحسان إليه، وكم من مفتون بالثناء عليه، وكم من مغرور بالستر عليه"^(٢).
وقد تقدم ذكر الاستدراج على الإملاء، لأن العُصاة يستدرجون أولاً - اختباراً لهم - ثم يعطون الفرصة (الإمهال) قبل نزول العقوبة، لطفاً من الله وأملاً في عودتهم، وفي هذا الترتيب مراعاة للسبق الزمني، والترتيب المائل دوماً في سنن الله، ولا تغيير لسننه.

ومن هذا الغرض تقدم ذكر (نظرة العين) على (الإساءة في القول) في قوله تعالى:
﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيَلْقُواكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾^(٣).
فقد آذوا النبي بأبصارهم حتى كادوا يزلقونه (بوقعونه أرضاً) وهذه إشارة إلى نظرة العين، وقدرتها على الإيقاع بالإنسان، وفي ذلك يقول القرطبي:

"إنَّ العربَ كانت إذا أراد أحدهم أن يصيب أحداً - يعني في نفسه وماله - تجوع ثلاثة أيام، ثم تعرض لنفسه وماله فيقول: تالله ما رأيت أقوى منه ولا أشجع، ولا أكثر منه ولا أحسن، فيصيبه بعينه، فيهلك هو وماله، فأنزل الله تعالى هذه الآية"^(٤).

وقد حماه الله سبحانه (أي النبي من هذه النظرة) فجاء الفعل (وإن كادوا) أي أوشكوا على هذا الفعل، ولم يفعلوه لحفظ الله نبيه الكريم.

وقد تقدم ذكر هذا الفعل الشائن (نظرة العين) على القول المسيء (ويقولون إنه لمجنون) مراعاةً للترتيب الطبيعي في الأفعال الشريرة، فالنظرة تسبق القول، ومحاولة الإيذاء بالنظر والحسد، تسبق التصريح والتصعيد بالقول.

وعند تصوير وقوف العُصاة أمام الله، يظهر خضوعهم من خلال غضهم لأبصارهم، وملامح الإرهاق البادية على وجوههم في قوله تعالى:

﴿خَاشِعَةً أَبْصَارِهِمْ رَبَّهُمْ ذَلَّةً﴾^(٥).

وقد تقدمت صورة الخشوع على صورة الإرهاق، لأن خشوع البصر يمكن تبيينه قبل مظاهر الإرهاق، التي تحتاج برهة لتأملها في وجه صاحبها. وبذا يكون التقديم مراعيًا لترتيب القوة في الظهور.

(١) الكشاف، ج ٤، ص ٥٨٣.

(٢) الكشاف، ج ٤، ص ٥٨٢.

(٣) سورة القلم، الآية: ٥١.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، ج ١٨، ص ١٦٦.

(٥) سورة القلم، الآية: ٤٣.

وفي السورة الكريمة تظهر تقنية رائعة في التصوير وهي المقابلة بين الصور^(١)، وتعني العودة إلى الوراثة لتصوير مشهد سابق يفسر مشهداً حاضراً، وذلك في قوله تعالى:

﴿يَوْمُ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُمُهُمْ ذُلَّتْ أَوْدَانُهُمْ﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ (٢).

فالآية الكريمة تعلل عدم قدرة العصاة على السجود أمام الله يوم الحساب، رغم الكشف عن سيقانهم، ودعوتهم إلى السجود، وتعود بالقارئ إلى الوراثة يوم كان هؤلاء قادرين على السجود - في الحياة الدنيا - ولكنهم معرضين عنه، فكانت عقوبتهم من جنس عملهم، وهي عجزهم عنه حين احتاجوا إليه في حضرة الله سبحانه.

فالتقديم والتأخير في هذه التقنية ظاهر من خلال قلب المشاهد، بحيث تقدم المشهد الأخير على الأول، أو النتيجة على السبب لتحقيق هذه التقنية الرائعة، والعودة بذاكرة الإنسان إلى المسببات الأولى!! وعند التمعن في الخطاب الموجه إلى هؤلاء الذين وقفوا في وجه رسول الله، نجد أن التساؤلات التي وجهت إليهم، رتبت ترتيباً روعياً فيه التدرج في تصاعد شدة الخطاب وقوته، وذلك في قوله تعالى:

﴿أَفَجَعَلْنَا الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (٣).
 ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (٤).
 ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَلْمِزُونَ﴾ (٥).
 ﴿إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا تَخِيرُونَ﴾ (٦).
 ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِالْغَتِّ إِلَى يَوْمِ الْيَاقِينِ إِنَّ لَكُمْ لَمَّا تَحْكُمُونَ﴾ (٧).
 ﴿سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ (٨).
 ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (٩).

حيث بدأ الخطاب بالتصعيد معهم من الوهلة الأولى وسؤالهم: هل نجعل حكمكم بتساوي الناس (المسلم والمجرم) هو الحكم الساري على الخلائق رغم أنه حكم عجيب!؟

(١) انظر التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، مصر، ط ٢٠٠٧م، ص ٩٨ - ٩٩.

(٢) سورة القلم، الآية: ٤٣.

(٣) سورة القلم، الآية: ٣٥.

(٤) سورة القلم، الآية: ٣٦.

(٥) سورة القلم، الآية: ٣٧.

(٦) سورة القلم، الآية: ٣٨.

(٧) سورة القلم، الآية: ٣٩.

(٨) سورة القلم، الآية: ٤٠.

(٩) سورة القلم، الآية: ٤١.

ثم تتصاعد حدة الخطاب والتساؤل إن كان لهم كتاب مقدس يشتقون منه الأحكام العجيبة: "أم لكم كتابٌ فيه تدرسون" فيتخبرون منه ما يشاؤون من أحكام على البشر؟ ووجود كتاب ديني يُعدّ أقوى حجة من الخطاب الشفوي الذي قد يصدر عنهم.

ثم تتصاعد حدة الخطاب بالتساؤل: إن كان لهم عهدود قد قطعها الله بالسماح لهم بإطلاق الأحكام إلى يوم القيامة واحتكارها: "أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة"^(١) وهذه بدورها أقوى من وجود كتب مقدسة (توضح ذلك) ولكن هيهات!!

ثم تتصاعد حدة الخطاب بدعوتهم إلى إحضار شهداء يشهدون بصدق أحاديثهم وأحكامهم، ومعلوم أن إحضار الشاهد من أقوى أساليب الإدانة وأكثرها تثبيتاً للخصوم.

وبذلك نجد أن آيات القرآن الكريم قد رتبت في هذه السورة (وفي غيرها من السور ترتيباً حكيماً، مقصوداً لذاته، وذلك لتحقيق غاية من غايات البلاغة، علمها من علمها وجهلها من جهلها!!

ويلفت النظر أن هذه السورة، قد أعادت في موضع لاحق ذات الأسلوبية في الحديث عن هؤلاء المشركين، مُلحة في التساؤل من جديد عن سر إعراضهم عن دعوة رسول الله:

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْتَلُونَ﴾^(٢).

﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾^(٣).

إنها أسلوبية التدرج والاستتكار الدال على التعجب من أحوالهم، ولكن الآيات هذه المرة تشير إلى الدافع المادي عند الإنسان، والذي قد يدعو إلى الإعراض عن العقيدة خوفاً على أمواله: ﴿فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْتَلُونَ﴾^(٤)، والمغرم هو الغرامة المالية التي تنقل كاهل الإنسان، وتجعله يحسب حساب لأيامه القادمة؛ لذلك استعاذ النبي من غلبة الدين فقال:

"وأعوذ بك من ضلع الدين وقهر الرجال"^(٥).

فهل خاف هؤلاء أن تحملهم العقيدة مغارم مالية؟ أو تدفعهم لبذل ما في جيوبهم؟ إن العقيدة الصحيحة تصدر عن القلب لا الجيب، فلم كل هذا الإعراض؟!

وعادت الآيات من جديد لتؤكد التساؤل عن موضوع الكتابة:

﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾^(٦)

(١) سورة القلم، الآية: ٣٩.

(٢) سورة القلم، الآية: ٤٦.

(٣) سورة القلم، الآية: ٤٧.

(٤) سورة القلم، الآية: ٤٦.

(٥) ضلع الدين: ثقله وشدته، انظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، لبنان، حديث رقم ٦٣٦٩.

(٦) سورة القلم، آية: ٤٧.

مما يؤكد أن هذه السورة في أساسها موجهة إلى أهل الكتاب (من اليهود) لأن عرب الجزيرة لم يكن لديهم كتاب ديني قبل هذا القرآن.

فالإشارات الواردة في السورة كلها تتسق مع البدايات لتكوّن وحدة السورة، وبيانها الأدبي الرفيع. وحول هذا التناسق يقول فاضل السامرائي:

"ذكر في سورة القلم في آخر السورة قول الكفرة: "وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون"^(١)، فردّ عليهم في أول السورة بنفي الجنون عنه، فقال: "ما أنت بنعمة ربك بمجنون"^(٢)، فناسب آخر السورة أولها"^(٣).

ونختم بالتأكيد على أن جميع آيات المصحف الشريف متسقةً بداياتها مع نهاياتها في التقديم والتأخير والأغراض والغايات والإشارات الإعجازية.

﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾^(٤).

تم بحمد الله

(١) سورة القلم، آية ٥١.

(٢) سورة القلم، آية ٢.

(٣) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، د. فاضل السامرائي، دار عمار، عمان، ط٣، ٢٠٠٣م، ص ١٦٩.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

الخلاصة

نستخلص من البحث السابق نتائج وتوجيهات أهمها:

١. لا ينبغي تحليل التقديم والتأخير في آية من الآيات الكريمة بقولنا: قُدّم هذا اللفظ أو أخر للأهمية، لأن الأهمية كلمة فضفاضة لا بدّ من بيان أبعادها، كأن نقول: وتكمن هذه الأهمية في بيان الاختصاص أو التعجب أو الزجر وغيرها.
٢. تنبه البلاغيون القدامى إلى أعراض لطيفة جداً لغايات التقديم والتأخير، لا بدّ من الإفادة منها عند تأملنا لتكوين الآيات وألفاظها كمرعاة الآية لقضية السبق الزمني والمكاني، والترقي من الأعلى إلى الأدنى، وغيرها. وبذلك تتكشف الآيات عن بدائع وفوائد أدبية وشرعية لا حدود لها.
٣. عمد البحث إلى سورة (القلم) كنموذج لتقصي هذه الظاهرة، فظهرت في السورة جماليات وأبعاد أثرت البحث وأكدت على عمق هذه الظاهرة بلاغياً. وذلك قدر استطاعة الباحث، مستعيناً بكتب التفسير والبلاغة، واجتهادات الدارسين القدامى والمحدثين.
٤. كانت ظاهرة التقديم والتأخير ماثلةً بوضوح في آيات السورة بحيثُ استطاع الباحث أن يتبين منها غايات عديدة منها:

١- مراعاة التدرج كقوله تعالى: "فستبصر ويبصرون".

٢- التقديم للأفضلية، كقوله تعالى: "ودوا لو تدهن فيدهنون".

٣- التقديم بالرتبة كقوله تعالى: "ولا تطع كل حلاف مهين، همّاز مشاء بنميم، مناع للخير معتد أثيم".

٤- التقديم للأفضلية، كقوله تعالى: "أن كان ذا مال وبنين".

٥- مراعاة أحوال الإنسان وخواطره، كقوله تعالى: "قالوا إنّنا لضالون بل نحن محرومون".

٦- مراعاة السبق الزمني، كقوله تعالى: "كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون".

٧- مراعاة قوة الظواهر، كقوله تعالى: "خاشعةً أبصارهم ترهقهم ذلة".

هذا ويحثّ الباحث على مزيد من التقصي من قبل الدارسين لفهم رموز القرآن الكريم، والحروف المقطّعة في مطالع السور، بعيداً عن الطريقة التقليدية التي عمد إليها المفسرون القدامى، لأنّ القرآن ماضٍ بإعجازه وتجده إلى يوم القيامة، فينبغي الترحيب بأية محاولات علمية جادة لاستقصاء معاني هذه الرموز وعدم الانغلاق على الموروث الدراسي القديم في هذا الباب.

والله ولي التوفيق

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
١. أسلوب التقديم والتأخير في القرآن الكريم، محمد فواز غنّام، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٩٣.
 ٢. إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني، تحقيق السيد أحمد الصقر، دار المعارف، مصر، ١٩٦٣م.
 ٣. الإعجاز البياني للقرآن، د. عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، مصر د.ت.
 ٤. إعجاز القرآن البياني، د. صلاح الخالدي، دار عمار، عمان، ط١، ٢٠٠٠م.
 ٥. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، مؤسسة المختار، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م.
 ٦. إعراب القرآن، أبو جعفر النحاس، تحقيق: زهير غازي زاهد، مكتبة النهضة، بيروت، ط٣، ١٩٨٨.
 ٧. الأمالي، أبو القاسم الزجاجي، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجبل، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م.
 ٨. بدائع الفوائد، ابن القيم الجوزية، تحقيق علي بن محمد العمران، دار علم الفوائد، ط٢، ج١.
 ٩. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ط٢.
 ١٠. بلاغة العطف في القرآن الكريم، د. عفت الشراوي، دار النهضة العربية، بيروت.
 ١١. التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، مصر، ط١٩، ٢٠٠٧م.
 ١٢. التعبير القرآني، د. فاضل السامرائي، دار عمار، عمان، ط٨.
 ١٣. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله القرطبي، تحقيق: سالم مصطفى البديري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٩٨٨.
 ١٤. دراسات في فقه اللغة، د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين، ط١١، ١٩٨٦م.
 ١٥. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق، ط١، ٢٠٠٧.
 ١٦. العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد قرقران، دار المعرفة، بيروت، ط٢.
 ١٧. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، لبنان.
 ١٨. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ج٢٩، (د.ت).
 ١٩. قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، د. فضل حسن عباس، دار البشير، عمان، ط١، ١٩٨٨م.
 ٢٠. الكتاب، سيبويه (أبو بشر عمرو بن قنبر) تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٨٨م.
 ٢١. الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم الزمخشري، تحقيق: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٣م.
 ٢٢. معاني التراكيب، عبد الفتاح لاشين، دار الطباعة المحمدية، الأزهر (د.ت).
 ٢٣. من أسرار اللغة، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٦، ١٩٨٧م.
 ٢٤. من بلاغة القرآن، د. أحمد أحمد بدوي، نهضة مصر للطباعة، ٢٠٠٥م.
 ٢٥. لسان العرب، ابن منظور المصري، دار صادر، بيروت.
 ٢٦. لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، د. فاضل السامرائي، دار عمار، عمان، ط٣، ٢٠٠٣م.

٢٧. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، تحقيق: محمد محي الدين، مطبعة مصطفى البابي، مصر، ١٩٣٩م.
٢٨. معاني القرآن، أبو زكريا الفراء، تحقيق: عبد الفتاح شلبي، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٧٢م.
٢٩. معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.
٣٠. مغني اللبيب، ابن هشام الأنصاري، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد (د. ط)، ج٢.
٣١. الموشح، المرزباني (أبو عبد الله محمد بن عمران) تحقيق: علي محمد البجاوي، مطبعة لجان البيان العربي، ١٩٦٥م.
٣٢. نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق: كمال مصطفى، ط٣.
٣٣. الهيروغليفية تفسر القرآن الكريم، سعد عبد المطلب العدل، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م.